في الأدب العربي

٣ ـ القصة المصرية

للاستاذ جيب
أستاذ الادب العربى فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن

ولقد كتب الدكتور زكى مبارك معارضة من هذا القبيل يوافق فيها على أن القصة لا يمكن أن تنشأ فى مصر الا اذا حصلت المرأة على مركز اجتماعى لائق ، ويصف كتاب القصة فى الأدب العربى بأنهم ينتمون الى الطبقة الوضيعة من طبقات الأدباء، وينعى عليهم قلة خبرتهم بفنون الكتابة وعدم استقلالهم فى الرأى وسطوهم على الآداب الأوربية ، وأدهى من ذلك أنهم يغرون الشباب باحتقار فنون الكتابة الأخرى، على حين أن الأدب الحقيقى الذى يتجلى فيه الصدق والدقة الفنية قد يوجد فى ضروب أخرى من ضروب الكتابة كالرسالة والقصيدة . وليس من الجائز أن نحكم على الأدب العربى بما نشاهده فى الأدب الفرنسى والانجليزى ، بل يجب أن نحكم عليه حسب ميول أبنائه ، وحسب درجة نجاحه فى التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم . ويشير الكاتب الى أن آداب الصحافة فى مصر توضح الآن كثيراً من المشاكل العلمية والروحية ومشاكل العاطفة التى تواجه المصريين ، والى أن مراقبة الحكومة ووقوف الرجعيين بالمرصاد يحولان دون الافاضة فى توضيح تلك المشاكل . ويقول الكاتب ان هناك نقطة اخرى جديرة بالانتباه وهى أنه يجب علينا ونحن وارثو الماضى أن نستحضر ذلك الماضى ونحن نفكر فى الحاضر، وأن ننظر بعين الاعتبار الى الاساليب والطرق القديمة فى الكتابة حينما نتجه نحو التجديد ، فان ذلك أجدى علينا من هذا البهرج الكاذب الذى يزيف به الأدب الحديث .

ولكن الادب العصرى فى مصر قد أثبت الآن حيويته وسار فعلا فى طريق الاستقلال، وليس من الممكن أن يجد القارىء المتوسط بغيته الآن فى الأدب القديم، فانك اذا وجهت اهتمامه مثلا الى العقد الفريد أو الى غيره من آثار « العصر الذهبى » فكأنك بذلك تعطيه حجرا بدل الرغيف الذى يطلبه ويصر على الحصول عليه . واذا وقف الكتاب دون امداده بما يطلب فانه يتجه الى استيراده من الخارج مهما ثبت له عدم ملاءمة ذلك الذى يستورده لطبيعته وحالته الاجتماعية . وقل أن يجد القارىء فى المقالة أو فى الموضوع الذى يعرف بالرسالة فى القصيدة العادية ما يغير خياله ، اذ ينقصها عنصر الخيال واللذة الحية، اللهم الا فى القصيدة الشعرية المتينة فقد يكون فيها ما يدخل فى دائرة الميراث الخيالى للناس .

وهكذا نرى أن المسألة فى جوهرها ليست مسألة تقليد ومحاكاة لأهل الغرب، فلقد أدى اتساع التعليم الى اتجاه ميول القراء الى نواح أخرى . ولما نشأت تلك الحالة فى أوربا عمد الكتاب الى القصة ليقابلوا بها ميول القراء، ونستطيع أن نقول انه مالم يتسن للكتاب المصريين ايجاد القصة فسيستمر اتجاه القراء فى مصر الى الأدب الأوربى، فان المقالة أو الموضوع الأدبى أقل من أن يفى بالغرض الذى يسعى اليه القراء

اما القول بأن ادخال فن من فنون الكتابة لم يكن موجوداً من قبل قد يكون فيه مساس بكرامة الشعب الأدبية فرأى مبنى على التطرف والمبالغة، وهل أدى ادخال القصة فى الأدب التركى أو الهندى الى الحط من كرامتهما ؟ كلا . ومن أجل ذلك نرى القصة المصرية تنشب جذورها فى تربة الأدب المصرى فى ثبات مهما صادفت من صعاب ونكران للجميل.

ولكن القصة لاتصل الى تمام نموها ، إلا اذا وافقت بيئة البلاد الاجتماعية، ومن هنا تنشأ المشكلة الرئيسية

اذا وضعنا جانباً تلك العوامل الاجتماعية التى تكلمنا عنها فان كتاب القصة فى مصر قد ووجهوا بمشكلة أخرى أشرنا اليها فى مبدأ هذا البحث وهى خلق (فن اصطلاحى حديث) للقصة . ونستطيع أن نتبين فى كتابات المنفلوطى وجورجى زيدان بعض المحاولات فى هذا السبيل ولكن من حيث الاسلوب فقط ، الاول بطريقته والثانى بسهولة عبارته ، ولكن كلاهما لم يتعرض للنقطة الاساسية ، وهى الوصول الى تمثيل

الحياة الاجتماعية الراهنة تمثيلا صحيحاً فى الألفاظ وطريقة التعبير عما فى النفس وعلى الأخص فى الحوار.

على أن هذه المهمة قد وجدت من اشتغل بها من كتاب القصص القصيرة وأقدمهم فى ذلك هو محمد تيمور (١٨٢٩ - ١٩٢١) ويمنعنا ضيق المجال هنا من أن ندرس بالتفصيل آثار تلك الطائفة، ولذلك نكتفى بأن نشير الى نقطة من أهم النقط التى تعرضوا لها أو هى الطريقة التى جروا عليها فى أسلوب الحوار.

وهنا ينبغى أن نذكر أن مشكلة الاسلوب الواجب اتباعه فى الحوار لم تكن مقصورة على الأدب العربى ولكنها ظهرت أيضا فى كثير من آداب الممالك الاوربية وبخاصة فى تلك الممالك التى لم تكن قد هذبت فيها لغة التخاطب العادية تحت تأثير الكتابات الادبية، وتنحصر تلك المشكلة فى السؤال الآتى : هل نستعمل اللغة الفصحى فى الحوار وبذلك نجعله حوارا مصطنعاً غير طبيعى ؟ أم نقتصر على اللغة الفصحى فى القصص والوصف ، ونستعمل العامية فى الحوار، وبذلك نعرض القصة للتفكك والتنافر ؟

ولقد سار الكتاب فى القصص التى ظهرت فيما قبل على الطريقة الاولى أعنى استخدام اللغة الفصحى فى الحوار لا فى الترجمة فحسب — وهنا تكون المسألة طبيعية — ولكن فيما ألفه كتاب القصص من السوريين أيضا ، وذلك يذكر القارىء الأوربى ما كانت عليه القصص الأوروبية أثناء نشأتها من فتكلف والضعف . وتعتبر زينب فى نظرى أول قصة استعملت اليها اللغة العامية فى الحوار ، ولقد ترك ذلك أثراً فى القصص القصيرة الأخرى، ونخص بالذكر منها مجموعة محمود تيمور المسماة « بالشيخ جمعة » ولقد قامت بجانب ذلك فكرة أخرى وهى أن يكون الحوار بحسب درجة تعلم المتكلم، وبذلك يراوح الكاتب بين اللغة الفصحى واللغة العامية هبوطا أو صعوداً، واذا استعمل الفصحى على لسان شخص متعلم الأدبية العالية ينبغى أن يتحاشى العبارات ، لكى يتمشى ذلك مع السهولة المطلوبة والمعتادة فى الحوار (ويلاحظ أن الحوار فى الطبعة الثانية للشيخ جمعة قد عدل بما يتفق مع هذا المبدأ) . وبهذه الطريقة يتسنى للكتاب أن يحرصوا على المظهر الطبيعى للقصة مع تضحية قليلة فى الصدق والاصابة بحيث لا يصعب على القارىء أثناء مطالعة القصة أن يحول فى ذهنه عبارات الحوار المكتوبة الى مايعرفه من عبارات الحديث المألوفة . ونحن من جهتنا نتوقع أن نشاهد تحقيق هذه النظرية فى القريب، وعلى الخصوص مع اتساع التعليم الابتدائى وبفضل مجهود الادباء .

ويبقى علينا فى هذا الصدد أن نتساءل الى أى حد قد استطاع القصصيون الحديثون فى مصر أن يعبروا عن مشاكل شعبهم وحاجاته وأطماعه . يمكننا أن نستنتج من البحث المتقدم أن عدد القصص التى يظهر فيها ذلك قليل جداً اذا اقتصرنا على الآثار التى لها قيمة أدبية حقيقية .

يعتبر نقولا حداد ، صاحب جريدة السيدات والرجال التى نشرت فيها معظم مباحثه ، أوفر القصصيين العصريين انتاجا وهو فى نظر محمود تيمور أبعدهم شهرة أيضاً . وعلى الرغم من أن الرجل سورى الأصل فان لبحثه وأسلوبه صبغة مصرية اكثر مما لسواه من الكتاب السوريين، ونستطيع أن نحكم من روايته التاريخية « فرعونة العرب » أن لديه مقدرة على اجتذاب القراء اليه بما يتخلل قصته من الحركة السريعة والمواقف الرائعة. على أن خطة القصة فيها شيء من التفكك ، والأشخاص تعوزهم قوة التصوير ، حتى اننا نشك فيما اذا كان المؤلف قد أضاف شيئاً الى نمو القصة المصرية من حيث الشكل أو من حيث الموضوع.

وهناك قصة تاريخية أخرى تحوى الشيء الكثير من اللذة الادبية ، وتعتبر أول عمل من نوعه فى الادب المصرى ، تلك هى قصة « ابنة المملوك » لمؤلفها الاستاذ محمد فريد أبو حديد ، وهذه القصة لا تمت بأية صلة الى ذلك النوع من القصص التاريخية التى أخرجها زيدان ، وهى من جهة أخرى تفوقها من وجوه عدة . ففى قصة ابنة المملوك قد حلت الحقيقة محل الخيال الجامح الذى تمتاز به قصص زيدان ، وفضلا عن ذلك فان تلك القصة لم تستغرقها كثرة الحوادث التاريخية ، وانما وضعت بطريقة تاريخية واضحة ، وكان العصر الذى اختير لها هو فترة النزاع بين محمد على والمماليك سنة ١٨٠٥ الى ١٨٠٨ ولقد استطاع المؤلف أن يعرض الحوادث التاريخية فى ثنايا القصة بحيث لا يجتذب التفات القارىء اليها قسراً . وحتى أهم الحوادث التاريخية فى تلك الفترة وهى الحملة الانجليزية التى وجهت الى الاسكندرية وهزيمتها فى رشيد عام ١٨٠٧، لم يشر اليها المؤلف إلا إشارة وجيزة فى سطرين أو ثلاثة مع أن بطل القصة وهو فتى عربى فار من وجه الوهابيين قد صوره المؤلف على أنه قام بنصيب فى تلك الحرب ، ومع أن القصة لم تنجح تماما فى تجنب الجفاء الذى تمتاز به القصص التاريخية

تجد على الرغم من ذلك حياة وحركة فى تصوير الأشخاص . وهى فضلا عن ذلك تسترعي انتباه القارىء من فاتحتها حتى خاتمتها التى جاءت فى شكل مأساة .

تأتى بعد ذلك تلك القصة التى نشرت حديثا ، وتعتبر من جميع الوجوه أهم قصة صدرت بعد زينب . وهى القصة التى طال انتظارنا اياها من المازنى . وقد نشرت عام ١٩٣٠ تحت عنوان ابراهيم الكاتب . ويقول المؤلف فى مقدمة القصة إن جزءاً منها كتب فى عام ١٩٢٥ وانها تمت فى عام ١٩٢٦ ثم تركت بعد ذلك جانباً ، وإن جزءاً من نصفها الأخير قد كتب بسرعة أثناء الطبع نظراً لفقد بعض الأصول وقد يساعدنا ذلك على تفسير الاضطراب الذى سنشير اليه أثناء الكلام عنها . وقد جاء فى المقدمة أيضاً بحث شيق للمشاكل التى تكلمنا عنها . أما فيما يختص بأسلوب الحوار فان المازنى يرفض الكلام العامى خلوه من دقة التعبير وعدم ثباته ، فى حين أن العبارات الفصيحة آخذة فى التقدم والتهذيب يوما بعد يوم . ويعارض المازنى أيضا فى مقدمته هيكل بك فيما يراه من أن العوامل الاجتماعية فى مصر تحول دون خلق القصة المصرية . فان القائلين بهذا الرأى يفترضون خطأ أن القصة الغربية هى النموذج الوحيد للفن القصصى . ولكن لم لا يكون هناك قصة مصرية قائمة بذاتها تميزها ميزات خاصة ؟ ويرى المازنى أن الحياة الاجتماعية فى مصر لا تقوم عقبة فى وجه أى كاتب بارع الخيال . ويقول اننا اذا سلمنا بأن وجهة المصريين وأفكارهم فيما يتعلق بالحب ، تختلف عن وجهة الاوربيين فى ذلك ، فلا يتحتم أن يكون ذلك عقبة كأداء فى سبيل القصة المصرية . ولم تكون عاطفة الحب ذاتها هى المحور الاصلى الذى تدور حوله القصة ؟ ويضيف المازنى أن ما يتخيله الكتاب من ضيق مجال القصة المصرية ، إنما هو « نوع من الهستيريا » لا أقل ولا أكثر .

على أن القصة نفسها لا تحقق ما ينتظره منها المرء بعد هذه المقدمة . وليس ذلك لانها أخفقت فى الخطة أو فى تفصيل المواقف وتصوير الاشخاص أو فى غير ذلك من المسائل الفنية . كلا فانها من هذه الوجوه أحسن قصة فى الأدب العربى على ما أعلم ، ويتجلى فى هذه القصة تلك الروح التى ينفرد بها المازنى من جميع معاصريه أعنى تلك الرقة هاتيك الروح الفكاهية التهكمية التى تظهر فى كتاباته . ويسير القصص فيها سيراً حثيثا وفى سهولة كما أن الحوار سهل طبيعي وقد جاءت الانتقادات الاجتماعية والتحليلات النفسية — التى قصد اليها المؤلف بطريقة مضمرة فى ثنايا الكلام — أكثر منها صريحة واضحة . ولكنها على الرغم من ذلك — فيما عدا أشخاصها واوضاعها — ليست قصة مصرية بالمعنى الذى يفترضه المازنى نفسه . وأكبر دليل على ذلك أن بطل القصة عبارة عن شخصية غريبة لا تكاد تنطبق الا على القليلين من المصريين ، وربما كان الناشر مصيباً فى أن اتفاق الاسم بين المؤلف وبطل القصة لم يكن أمراً خياليا محضا . والقصة ذاتها غربية فى المشاعر والمثل ، كما هى كذلك أيضاً فى المسحة الأدبية وفى الموضوع الذى تدور حوله . ودراسة عاطفة الحب قائمة على أساس غربى لا شرقى وحتى المظاهر الخارجية ذاتها من حيث الشكل والأسلوب تنطق بهذا الطابع الغربى ، ومن أمثلة ذلك كثرة استعمال المجازات والجمل الغربية . وأغرب من ذلك كله جرى المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الانجيل فى رأس كل فصل من فصوله . ويوجد فرق محسوس فى اللهجة والموضوع بين نصف القصة الاول ونصفها الثانى . أما الاول فانه يسير فى دائرة الحياة الاجتماعية المصرية ولا يمكن أن يصور ما فيه من فكاهة وعطف إلا قلم كاتب مصرى . أما النصف الثانى فيستبين فيه جو آخر وتتغير فيه اللهجة الاولى تدريجياً كما لو كان أسلوب المؤلف قد تأثر بما انتاب بطل القصة فى هذا النصف .

ونحن دون أن ننكر على المؤلف إصابته فى الخيال ، نقرر أن « ابراهيم الكاتب » « كزينب » واضحة الصلة بالرواية الغربية ، ولكن ماحوته زينب من العواطف لا يروق فى عين المازنى الذى تتجه ميوله الى جهة أقوى ، والذى يهتم بتمثيل الحقيقة . وفى هذه الحالة نقول إن تداعى الافكار الأدبية التى يمتاز بها فكر المازنى قد صرف ذهنه إلى رواية « سانين » فأوجد صلة بين رواية المازنى أو على الاقل بين جزء منها فى تصوراتها وبين هذه الرواية الروسية التى ترجمها المازنى تحت عنوان « ابن الطبيعة » . نعم ان رواية ابراهيم الكاتب تختلف كل الاختلاف فى الخطة وفى طريقة الاتساع عن قصة « سانين » ولكن شخصية ابرهيم قد استعادت بعض الشىء من شخصية سانين . وفى رواية المازنى منظر يعتبر ترجمة حرفية لخاتمة القصة الروسية .

ومما تقدم نرى أن القصة المصرية كما يتجلى فى كتابة كاتبين من أكبر كتابها ، لا تزال دون المثل الذى رسمه لها الكتاب . ولا تصل القصة المصرية الى كمالها ، الا بالجمع بين المقدرة الفنية التى يمتاز بها كتاب الغرب وبين